إثراء الدراسات الرعوية من خلال تساؤلات زراعية أكثر شمولا

كيف يمكننا أن نتجاوز التصورات المسبقة والراسخة لكي نتمكن من خلق المزيد من فرص الابتكار في النضالات الزراعية؟ عادة ما تتمحور النقاشات في الحقل الزراعي حول الحق في الأرض والسيادة الغذائية والتفاعلات اليومية مع الضغوط النيوليبرالية. قد تثير هذه النقاشات صورا لمزارعين يحرثون الأرض ويتوحدون في إطار النضال الزراعي كما هو الحال اليوم في الهند.

قد نكون على وعي بأن الصورة أكثر تعقيدا وأن هناك أنواع متعددة من المزارعين ونوعيات مختلفة من التربة لها تأثير على الزراعة وكذلك "تساؤلات" متنوعة في هذه الحركات الزراعية. ومع ذلك لاتزال التصورات المسبقة ملتفة حول صورة المزارع وزراعة الأرض قد طبعت فينا في مرحلة الطفولة بما في ذلك صورة الكفاح الأبدي للفلاحين التي قد تكون أقل شاعرية.

ولكن نادرا ما يشغل الرعاة (وصيادو الأسماك ومربو النحل وجامعو الثمار والصيادون) الموضع الأمامي أو المركز في ا التصورات المسبقة في مجال الزراعة. يقول إيان سكونز في مقال حديث بعنوان *Pastoralists and peasants: perspectives on agrarian change* أن هنالك أسبابا تاريخية وسياسية ومتعلقة بالتخصصات الأكاديمية للتفرقة بين مربي الماشية المتنقلين (الرعاة) وصغار المزارعين المستقرين (الفلاحين) ولكنه يواصل بالقول بأن هذا لم يعد منطقياً اليوم. حيث يجابه الرعاة والفلاحون اليوم عراقيل متشابهة مثل التسييج والخصخصة والتسليع كما يواجهون عدم وضوح الرؤية.

بما أن مصفوفات سبل عيش الرعاة تشبه بشكل متزايد مصفوفات سبل عيش الفلاحين (والعكس بالعكس) فإن الحفاظ على تعريفات محددة ومفاهيم منفصلة لـ "الرعاة مقابل الفلاحين" لا يقوض فقط التأثير الجماعي للحركات الزراعية بل يضلل أيضاً خطط رسم السياسات. وبغض النظر عمن هم الرعاة ومن هم الفلاحون قد

يكون السؤال الأكثر أهمية هو التالي: *ما الذي يمكن أن نتعلمه من عالم الرعي من أجل تحقيق نضالات زراعية أوسع؟*

لقد تم فحص هذا السؤال في الحلقة الأولى من سلسلة الندوة الدراسية عبر الإنترنت تحت عنوان نقاشات زراعية والتي تهدف إلى الخوض في حوارات حول الدراسات الزراعية النقدية والنضال الأكاديمي. تهدف هذه السلسلة اللي تنسقها مجموعة قوية من مختلف التخصصات ومتبعي مبدأ التعددية ومنها تجمع الباحثين الزراعيين النشطاء من الجنوب CASAS والمعهد عبر الوطني TNI و معهد دراسات الفقر والأراضي والزراعة PLAAS و مبادرات في الدراسات الزراعية النقدية ICAS وشبكة الباحثين الأفارقة الشباب في الزراعة YARA والمبادرة السياسية الريفية التحررية ERPI وRRUSHES-5 ومجلة الدراسات الزراعية ومجموعة PASTRES الخاصة بنا، إلى معالجة القضايا الاستراتيجية والملحة المتعلقة بالمناطق الريفية اليوم.

تتحمل الأوساط الأكاديمية مسؤولية جسيمة في إثارة الأسئلة المهمة وفي المساهمة في تأطير الحركات الاجتماعية من خلال تعميق النقاش وتوسيعه والتحيزات والقوالب النمطية الموجودة في السرديات السائدة. كما تمت مناقشته في هذه الحلقة الأولى, ومن دوافع الانشغال أن الفصل بين الفلاحين والرعاة لا يزال موجودا في الأوساط الأكاديمية وفي الحركات الاجتماعية. فما هي الأشياء التي تتغاضى عنها الدراسات الرعوية في الدراسة الزراعية والعكس بالعكس؟ ولماذا يجب أن تبدأ هذه الإختلافات في الزوال إذا أردنا الخوض في مناقشات أكثر تقدمية حول التحول؟

بدأت أدرك من خلال عملي في تونس بأن الأمر يتجاوز مجرد موائمة الحقائق التجريبية للرعي مع الجوانب النظرية للمسائل الزراعية الكبرى الخاصة بميدان الدراسات الزراعية وما يمثله ذلك من تحفيز فكري. بل إن هذا التلاقح يلائم بين التخصصين بالكشف عن تداخلهما وتكملتهما لبعضهما البعض بالرغم من أطرهما المتباينة. وهذا يدعونا إلى أن نكون على بينة من الاختلافات في التأطير المفاهيمي لكل تخصص والشروع بهذا التلاقح بفعالية. حسب رأيي، يمكن لذلك أن يجنب الفهم الاختزالي للقضايا المعقدة وأن يكون وسيلة للابتكار من أجل الحفاظ على تشابك الحركات الاجتماعية الزراعية.

سبعة مواضيع تربط بين الرعاة والفلاحين

من المفيد في هذه المرحلة أن ألخص بإيجاز المحاور السبعة التي يقترحها إيان. قد تساعدنا هذه المحاور على إعادة صياغة مناهج التفكير المشتركة في النضالات الزراعية من خلال الاستلهام من الخصائص التي يمتاز بها الرعي مثل المرونة والحركية والقابلية للتكيف.

المحاور هي:

- العيش في الشك ومنه لتوليد الموثوقية,
- التنقل والتحرك لتتبع التغيريّة,
- آليات مرنة للسيطرة على الأراضي وحيازتها تتجاوز المفاهيم الثابتة والمحدودة للملكية الخاصة,
- نضم اجتماعية متحركة تمكن من التكيف,
- أهمية التضامن الاجتماعي الجماعي والاقتصاد الأخلاقي،
- التعامل مع أسواق حقيقية تربط بين الأسواق الرسمية وغير الرسمية،
- سياسة شبكية من أجل عالم متحول.

أصبح من الواضح, بعد فسح المجال للمتحدثتين مريم رحمانيان ورحمة حسان, أن الصراعات على السلطة القائمة حول طاولات المفاوضات والتي تخاض على جميع المستويات الوطنية منها والدولية والحكومية لا تزال مستمرة نتيجة للتركات المنفصلة للدراسات المتعلقة بالفلاحين والرعاة. تأكد شهادتيهما المستندة إلى تجربتيهما المهنية والشخصية في غرب آسيا وأفريقيا جنوب الصحراء الكبرى على التوالي أن المناقشات المتعلقة بالسياسات, مثلا حول القوانين المتعلقة بالإصلاح الزراعي والأراضي والأقاليم, لا تزال مجزئة. ويرجع ذلك جزئياً إلى غياب الرعاة في مجموعات العمل المعنية بالقضايا الزراعية.

قطعا لا يمكن تجاهل الاختلافات بين هويتي الفلاحين والرعاة وثقافاتهما. ومع ذلك، فإن السؤال عن هوية الرعاة، وما الذي يميز الراعي، هو في رأينا مضلل - خاصة عند تنظيم الحركات الاجتماعية. إنه يصرف الانتباه عن النضالات المشتركة، ويغذي هذا الانقسام المدمر في مواجهة الضغوط النيوليبرالية المتزايدة, كما يجادل إيان وغيره.

تجنب الفخاخ المتصلة بالتعاريف

لا يجب أن نهتم فقط بتعريف الرعاة بشكل مفصل بل بكيفية تواجد سبل عيش مختلفة وبطرق مختلفة في نفس الإقليم. وكذلك أن تكفل السياسات بقاء خيارات سبل العيش متاحة لجميع. وأن يتم أيضا تطوير أطر للنضالات الزراعية تضم الهويات المتعددة.

أرى الميل إلى الوقوع في الفخاخ المتصلة بالتعاريف يحدث مرارا وتكرارا، سواء في المؤتمرات أو ورشات العمل في الأوساط الأكاديمية أو في إطار العمل التنموي – أو حتى في هذه المناقشات الزراعية. من المهم جدا أن يكون المرء حساسًا تجاه هذه الفخاخ: فهي تؤدي إلى تطوير سرديات سائدة تغذيها إلى حد كبير وسائل الإعلام التي يمكن أن تثير ضجة (على سبيل المثال) حول نزاعات المزارعين *مقابل* الرعاة وفي نفس الوقت أن تحجب أصول هذا الصراع، بما في ذلك الصراع بين مجموعات مختلفة من المزارعين وبين مجموعات مختلفة من الرعاة، والتي لا تقل عنها أهمية. وينبغي نقد هذه السرديات السائدة حول العداوة بين الرعاة والمزارعين، لأنها يمكن أن تؤدي إلى إهمال التكافل القائم بين سبل العيش المختلفة. تنشأ الصراعات بسبب قضايا هيكلية ومظالم أوسع نطاقا في المناطق المهمشة، مما يبعث القلق في أوساط النضال الزراعي.

تؤكد مواقع أبحاث PASTRES بطرق مختلفة أنه يمكننا تعلم الكثير من خصائص الرعاة الأكثر ارتباطا بالتنقل والتشبيك والقابلية للتكيف - كباحثين أولا وقبل كل شيء - حول كيفية العيش في الشك ومنه. تتقاطع هذه الجوانب مع التغيير الزراعي ومع الدراسات الفلاحية. لكن الأهم من ذلك وعلى الرغم من تركيزنا المنصبّ على "الرعاة"، إلا أننا في الواقع نتعامل مع الأطباء ومزارعي الزيتون وعمال النظافة والمهاجرين والنقابيين والنشطاء الأمازيغ ومربي النحل والصناعيين والرأسماليين والتجار ... والقائمة تطول. القصد هنا هو أنه غالبا ما يكون الرعاة شيئا آخر أيضا. يجب أن تكون كل هذه الهويات جزءا من الطريقة التي نتخيل بها بشكل جماعي "النقاشات الزراعية", بعيدا عن التمييز بين الرعاة والفلاحين.